المحاضرة الثانية: الرومانسية في الشعر العربي الحديث.

بعد أن أرست الكلاسيكيّة دعائمها بوصفها نظريّةً أدبيّة في الشعر العربي الحديث شعريّتها المحاكاة، والمحافظة على التراث الشعريّ العربي القديم.

ظهرت إلى الوجود الرومانسيّة بوصفها أيضاً حركةً ونظريّةً أدبيّة، وبرزت ملامحها في الشعر العربي الحديث في المدّة بين الحربين العالميّتَين، فكانت ردّ فعلٍ على قواعد الكلاسيكيّة الصّارمة، وبهذا فإنّ الشعر كان يواكب تطوّرات العصر الحديث ويتقدّم باستمرار، حتّى نرى تأثيرات الرومانسيّة تتجلّى فيما ظهر بعدها من رمزيّة وسِرياليّة.

- مصطلحُ الرومانسيّة:

- لَمّا دخل المصطلح الأدبيّ (الرومانسيّة Romanticism (الثقافةَ العربيّة منذ أوائل القرن العشرين كان إشكاليّاً؛ لاختلاف الظروف اللغويّة والثّقافة العربيّة عن سواها، فعُرّف المصطلح بـ (الرومانسية والرومنطيقية والرومنتيكية والرومنتية)، وتُرجِم إلى كلمتي (الإبداعيّة والابتداعيّة).

- وكلمة رومانس Romance إسبانيّة الأصل، تدلّ على نوع منَ الصِّياغة الشِّعريّة مُؤلّفة من مجموعة أبيات ثمانيّة المقاطع... وهي غير مقفاة.

- أمّا أصل كلمة رومانسيّة فيرجع إلى الكلمة الفرنسية (رومانس) في القرن السابع عشر بمعنى قصّةٍ أو رواية سواءٌ أكانت حقيقيّة أم خياليّة، أمّا في الأدبِ الإنجليزي فدخلت بمفهومها الخيالي.

- ثُمّ أُطلِقت في الأدب الألماني كلمة (رومانتش) على مشاهد الطبيعة الوحشيّة.

- وبذلكَ غدَتِ الرومانسيّة صِفةً تُطلَقُ على كلّ ما يتعلق بالنزعة الأدبية التي برزت في أواخر القرن ١٨ حتى منتصف القرن ١٩، وكانت تُبرزُ الخيال الإبداعي والتعبير الذاتيّ والولع بالطبيعة موضوعاً للأدب ومعياراً لجودته، وتميل إلى الكآبة، وتولي الغنائية الذاتية أهمية كبيرة.

- النظريّة الأدبيّة الرومانسيّة في الغرب وأعلامها:

- حدثت الثورة الصناعية الجارفة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان التغيير ظاهراً في الاهتمام بالطبقات الشعبيّة، ومحاولة إبرازها في العمل والحياة.

- رافق ظهورها وجود فلسفاتٍ جديدةٍ، انطلقت من سيادة العاطفة والفكر المثالي مثل؛ نظريّة جان جاك روسو الذي يُعَدُّ رائداً للرومانسيّة بلا منازع بأسلوبه المُتّسق في التفكير، إذ كان يطمئنُّ للطبيعة، فهي المكان الذي يخلو منَ الظلم والقوانين الجائرة والتفاوت الطبقي. في فرنسا، فقد "طرح روسو فلسفة الشعور والإيمان التي تدافع بحرارة عن حقّ الشّخصيّة الإنسانية في الكفاح ضدّ الاضطهاد الطبقي، واللامساواة الاجتماعية".

- ظهرت في إنكلترا لدى شكسبير الذي ثار على القواعد الكلاسيكية في المسرح الشعري، وبلغت نضوجها في القرن ١٩ في أشعار (توماس غراي و وليم بليك)، وبلغت أوجها في أشعار (ووردزورث) و(تشيلي) و (كيتس) و(بايرون) و(صاموئيل كولردج صاحب نظريّة الخيال الشعري).

– انطلقت الرومانسية من نظرية التعبيرِ، التي تعود إلى الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانط (١٧٢٤ – ١٨٠٤م)، وترى أن الفنّ ليس إلا تعبيراً عن الصورة الخالصة للعالم، وتراه إدراكاً شعورياً، وتملّكاً عاطفياً، وإبداعاً لا منطقياً لا عقلانياً .

– العناصر الرئيسة في المضمون الشعري الرومانسي كما وردت في موسوعة النظريات الأدبية:

يتسم الشعر الرومانسي بخصائص في المضمون والشكل ميّزته من الشعرِ الكلاسيكي، كما وردت في الإنتاج الأدبي لدى روادها الغربيين على النحو الآتي:

- الوصف العاشق لجمال المناظر الطبيعية.
- العودة إلى عصور الفروسية.
- التغني بالماضي المجيد للوطن.
- احترام كيان الإنسان في حدّ ذاته.
- إطلاق قوى العقل الباطن بشطحاته كلّها.
- ابتعدت الرومانسية عن النزعة الأخلاقيّة.
- من أهمّ عناصرها وخصائصها الذّاتيّة والفرديّة. الذاتية (الذات / الأنا). والفرديّة تعني الحرية في طريقة التعبير والتفكير.
- تفضيل العاطفة على المنطق، والمثالي على الواقعي.
- ارتياد الأماكن الغريبة التي تثير في الإنسان أغرب الإحساسات كالمقابر والخرائب في ضوء القمر.
- تتّسم بالغنائيّة التي هي أهمّ عنصر رومانسي، والغنائيّة ((نزعةٌ في الشعر بصفةٍ عامّة، تدفع الشاعر إلى التعبير عن انفعالاته بطريقةٍ أخّاذة تستميل النّفوس.. وهي موسيقا الشعر التي تتردّد في الأدب، والصّورة الشعريّة التي تُمثَّلُ في الخيال)).
- تعبّر الرومانسيّة عن الحلم والغموض وتستعمل الرّمز الشعري.
- المغالاة في الخيال والتّصوّرات والهلوسات والنَّزوات، والنفور من الواقع، والهروب إلى عوالم متخيلة كعالم الجنّ والخرافات وعرائس الشعرِ.

– ملامح الرُّومانسيّة في الشعر العربي الحديث:

– ظروف نشأتها:

– أمّا ملامحها في الشعر العربي الحديث فبرزت في المدّة التي بين الحربين العالميتين (١٩١٤–١٩٣٩)، فكانت ردَّ فعلٍ على القواعد الكلاسيكية الصارمة، وتشابهت ظروف نشأتها فيه مع ظروف نشأتها في الغرب.

– إذ برزت في العالم العربي عوامل سياسيّة واجتماعية وفكريّة غيّرت من القيم والنظرة إلى الوجود، فثار الشعراء على العقل والمنطق في الفنّ، واتّخذوا العاطفة أساس التجربة الفنية، وحاولوا تحطيم الشكل التقليدي للقصيدة.

– ولكنّ الرومانسية الشعريّة في الشّعر العربي الحديث لم تشكّل مدرسةً عربيّةً متكاملةً، إذ اقتصرت على بعض محاولات الشعراء التي تركّزت في الشكل أحياناً، بتحطيم عموديّة القصيدة العربية القديمة، وفي المضمون الشعري أحياناً أخرى، إذ شملت موضوعاته موضوعات الشعر الرومانسي الغربي من مثل؛ الطبيعة المثال، والفردية والغنائية،

والحب، والألم، والتعبير عن الحلم، والجنوح إلى الغموض، واعتماد العاطفة، والمغالاة أحياناً في الخيال والتصوّرات، والنّفور من الواقع والهروب إلى عوالم متخيّلة.

– وفي المدّة التي ظهرت فيها ملامح الرومانسية في الشعر العربي الحديث، عبّرت عنها المحاولات التجديدية، وكان لخليل مطران المحاولة الأولى، فمن خلالها تغيّر مسار الشّعر العربي الحديث، من التقليد إلى الإبداع الرومانسي، ومن ثمّ ظهرت جماعة الديوان، وشعراء المهجر الأمريكي، وجماعة أبولو في مصر، ويرأسها أحمد زكي أبو شادي، وظهر إلى الوجود شاعرٌ من تونُس هو أبو القاسم الشّابي، و" قد تعزّزت الصّلة بين أبي القاسم الشابي وبعض تلك المدارس عن طريق مجموعة الرّسائل الأدبيّة التي كان يتبادلها مع أدباء مصر وتونُس ولا سيّما أحمد زكي أبي شادي".

أ. دور الريادة الرومانسية في الشعر العربي الحديث (خليل مطران):

– بداية الرومانسيّة كانت مع خليل مطران، إذ اتجه بشعره للتعبير الحيّ عن وجدانه وتجاربه الذّاتية.

تمثّل مطران بالمثالية الرومانسية كالآتي: (التعبير الحزين، الثورة على المجتمع، اللجوء إلى الطبيعةِ وتناولها تناولاً جديداً، أي جعل عناصرها حيّة (قصيدة المساء الرومانسيّة): يقول فيها:

يا للغروبِ وما به من عِبرَةٍ	**للمستهامِ! وعِبرة للرائي!!**
أوليس نزعاً للنّهارِ وصَرْعةً	**للشّمسِ بينَ مآتمِ الأضواءِ؟**
أوليس طمساً لليقينِ ومبعثاً	**للشكِّ بين غلائلِ الظَّلماءِ؟**
أوليسَ محواً للوجودِ إلى مدىً	**وإبادةً لمعالـــمِ الأشياءِ؟**
حتى يكونَ النورُ تجديداً لها	**ويكونَ شِبْهَ البعثِ عودُ ذُكاءِ**
فكأنّ آخرَ دمعةٍ للكونِ قــد	**مُزِجتْ بآخرِ أدمعي لرثائي**
وكأنّني آنستُ يومـــي زائلاً	**فرأيتُ في المرآةِ كيف مسائي**

المساء يحمل دلالتين، الزمنية وهو بعد الغروب، ودلالة فنية فهو ليس حقيقياً لأنه يمثّل مساء الشاعر أي رؤيته، أي يجسّد تجربته الحياتية الخاصة به، والذاتية، فيندمج عنصرا الموضوع والذات في تعبير رومانسي رائع. كانت هذه القصيدة الأولى رومانسياً، وقد أثرت فيما كتب الشعراء بعدها من قصائد رومانسية.

ويقول في إحدى قصائده مُعبّراً عن رغبته القويّة في الانطلاق كالطّائر:

يَا أيُّها الطَّائِرُ المُغنِّي	**بِلا نَثيرٍ ولا نَظِيمِ**
مَن لِي بِشَدْوٍ طليقٍ وفَنٍّ	**كَشَدوِكَ المطربِ الرّخيم**
فَأنتَ تشدُو بِلا بَيانٍ	**ومَا تشاءُ المُنى تُجيدُ**
ونحنُ باللفظِ والمعاني	**نعجزُ عنْ بعضِ مَا نُريدُ**
أعِرْ جَناحيكَ يا رفيق	**أطر وأمرَح خلي البال**

من ساكب النور لي رحيق	**وفسحة الجوِّ لي مجال**

– قدّمَ مطران مجموعة من القصص الدرامي (القصة الشعريّة)، مثل (فتاة الجبل الأسود).

– أهمّ مظاهر التجديد لدى مطران الوحدة العضويّة في القصيدة، واستكثر من المقطّعات.

– اقترنت نزعة مطران الرومانسيّة بالكلاسيكيّة (الأسلوب).

ب. جماعة الديوان:

وتضمّ (عبّاس محمود العقّاد ١٩٦٤م، إبراهيم عبد القادر المازني ١٩٤٦م، عبد الرحمن شكري ١٩٥٨م). ودعت جماعةُ الديوان إلى عدّة نقاطٍ تجديديّة في الشعر:

- دعت إلى الاتِّجاه الوجداني، وتصوير الخطرات النفسيّة.
- دعت إلى الطبيعة من خلالِ عاطفة الشاعر والتأمّل العميق في الحياة.
- دعت إلى الوحدة العضويّة للقصيدة فتكون عملاً فنيّاً تامّاً، والتحرّر من أسر القافية الواحدة والألفاظ والصور التقليديّة.
- استمدّوا كتاباتهم النقديّة من الناقد الإنكليزي الرومانسي كولردج Coleridge وهازلت. Hazlit
- حقّقوا بعض ما دعوا إليه مثل الدعوة إلى الطبيعة، والتجربة الشعريّة، وعجزوا عن التغيير من عناصر الشكل فقد ظلّوا مُتعلّقين بالتُّراث، وتحرَّروا قليلاً من القافية.
- يكثر في شعرهم السعي وراء المثل الأعلى الذي ينشده الرومانسي في عالم غير منظور (الطبيعة، الوجدان، النفس).
- معظم عناصر الشكلِ تقليديّة.

مثال: يقول عبّاس محمود العقّاد وهو يخلع على الليل والبحرِ مشاعره الذّاتيّة فيقول:

وترَى البحرَ تحسبُ الماءَ حبراً	**وكأنّ السّماءَ أعماقُ بحرِ**
ظُلماتٌ تُحيطُ بالطَّرفِ أنّى امتدّ	**لم يَــعُد مدُّه قيدَ شبرِ**
وكهذا الظلام خيرٌ من النور	**إذا كُنتَ لا ترى وجهَ حُرِّ**
هاهُنا أُطلِقُ العنانَ لأشجاني	**وأبكي نفسِي وأُنشِدُ شِعري**

– ملامح التغيير عند جماعة الديوان:

١. التخلّص من شعر المناسبات إلى حدٍّ ما، والصياغة المزخرفة، وعرّفَ المازني الشعر بأنّه ((خاطِرٌ لا يزال يجيش بالصدرِ حتّى يجدَ مخرجاً ويُصيبَ متنفساً)).

٢. تحرّر الشعر من التزامِ القافية الواحدة مع التخفّف من صرامة الوزن القديم.

٣. ظهور ملامح الرومانسيّة على شعراء الديوان وأبولو، فغلبت عليهم نزعة القلق والأنين والشكوى من الحياة والتبرّم بمحنها.

٤. التفاعل مع الطبيعة تفاعلاً حيّاً (رمز الحالة الشعوريّة) قصيدة المساء لمطران .

جـ. شعراء المهجر الأمريكي:

بسببِ الأحداثِ التي جرَت على الأصعدة الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة أدّت إلى هجرة عددٍ منَ الشّعراء إلى المهجر، وكان ذلك في لبنان لاتِّصاله بالإرساليّات التبشيريّة. من أعلام شعراء المهجر: الرابطة القلميّة (جبران – ميخائيل نعيمة)، العصبة الأندلسية (ندرة حدّاد – فوزي معلوف).ومنهم إيليا أبو ماضي، نسيب عريضة.

– دعوة المهجريين في الشعر:

١. ظهرت لديهم النّزعة الوجدانيّة واستبطان النّفس، والالتفات إلى العواطف الإنسانيّة، وتجديد عناصر الشكل، وكسر رتابة القافية الواحدة، والموسيقا الصّاخبة.

٢. لديه ظواهر عامّة مشتركة في شعرهم: (الاهتمام بالتجارِب الذّاتيّة – الثورة على المجتمع – نشدان المثل الأعلى – تمجيد الموت – الهروب منَ العالم الصناعي إلى الطبيعة).

٣. حاولوا خلق عالمٍ يتّسمُ بـ ((الصدق، الخير، الجمال، الحرية، العدل)).

٤. تختلِفُ الرومانسيّة لدى شُعراء المهجر في جزئيّاتها.

٥. الإيحاء في التعبيرِ الفنّي (منَ الحسّي إلى الخيال)، والغنائيّة الصّافية.

٦. النّزعة الفلسفية.

يقول جبران في (أغنية الليلِ) مندمجاً بكيانه وحسّه في الطبيعة:

سكنَ الليلُ وفي ثوبِ السُّكون	**تختَبِي الأحلامُ**
وسعى البدرُ للبدرِ عيونٌ	**ترصدُ الأيام**
فتعالِي يا ابنةَ الحقلِ نزورُ	**كرمةَ العشّاقِ**
لا تخافِي يا فتاتِي فالنّجوم	**تكتمُ الأخبار**
لا تخافِي فعروسُ الجنِّ في	**كهفِها المسحور**
هجعت سكرى وكادَت تختَفي	**عن عيونِ الحور**
ومليكُ الجنِّ إنْ مرّ يروحُ	**والهَوى يُثنيه**
فهو مثلي عاشِقٌ كيفَ يبوحُ	**بالذي يُضنيهِ**

مثال أيضاً: من قصيدة المواكب لجبران خليل جبران (العودة إلى الغاب رمز العالم المثالي)، فيها تتجلّى الرومانسيّة في ضوء حوارٍ فلسفي، يقول:

ليسَ في الغاباتِ حُزنٌ	**لا ولا فيها الهموم**
وإذا هبّ نسيمٌ	**لم تَجِئ معَهُ السّموم**
ليسَ حزنُ النفسِ إلّا	**ظلّ وهْمٍ لا يدوم**
وغيومُ النفسِ تبدو	**من ثناياها النُّجوم**

أعطِني النّايَ وغنِّ	فالغنا يمحو المِحَن
وأنينُ الناي يبقى	بعْدَ أن يفنى الزّمن

فالغابُ هنا طبيعة مثاليّة، نقيّة من الحزن والهموم والسموم والأوهام، تُشكِّل الحريّة المطلقة والصّفاء المثالي، والناي قد يمثِّل الحياةَ بكليّتها، في رؤية جبران نظرةٌ صوفيّة، والغاب فيها يتعانق الهروب من الصناعي إلى الغاب المثالي.

د. جماعة (أبولو) في مصر:

– تُعَدُّ رابطةً للشعراء أكثر من كونها مدرسة فنيّة ذات اتّجاهات متميّزة، وتزود شعراؤها بالثقافةِ الغربية والتراث العربي، كما اختلفت طبيعتهم الشعريّة.

– يرأسها أحمد زكي أبو شادي الذي كان غزير الإنتاجِ، ومتعدّد النزعات، غلبت عليه النزعة الوجدانيّة (العواطف، التأمّلات النفسيّة والعقليّة مثل ديوانه الشفق الباكي).

– دعت إلى الفطرة والعاطفةِ الصادقة، والانسجامِ بالموسيقا، والتأمُّل الصوفي، والتعمُّق الفكري والنفسي والفلسفي.

من شعراء الرومانسيّة في البلاد العربيّة:

في مصر (إبراهيم ناجي ومحمود طه). وفي سورية عمر أبو ريشة الذي استعملَ الرمز وفيه قوّة الإيحاء، مثال (قصيدة النسر). وفي لبنان بشارة الخوري وإلياس أبو شبكة. إلياس أبو شبكة استعملَ الرّمزَ وتأثّرَ بالشُّعراءِ الفرنسيين مثل (أفاعي الفردوس).

مثال: يتميّز بشارة الخوري بالعذاب الرومانسي في ضياعِ الهوى والشباب، ولغته هي لغة الحبّ الرومانسي العاطفي المثال:

والهَوى والشَّبابُ والأملُ المنشودُ	ضاعَتْ جميعُها في يديّا
لم يكُنْ لي غَدٌ فأفرغتُ كأسِي	ثُمَّ حطّمتُها على شَفَتيّا

– الشاعر أبو القاسم الشابّي:

يُعدّ أبو القاسم الشابي من كبار الشّعراء في تُونُس وفي العالم العربي، فهو يمثّل الرومانسيّة في تونُس، ومن أهمّ سمات شعره "عاطفته المشبوبة التي تمتزج بالحبّ والطبيعة والوطن، امتزاج العابد بالمعبود، ورهافة إحساسه التي تجعله شاعر الألم والعذاب والموت، وصوره التي تتحوّل من مشاهد واقعيّة إلى رموزٍ وجدانيّة ومشاعره التي يحيا بها".

وقبل الكلام على الملامح الرومانسية في شعر أبي القاسم الشابي، لابدّ من الوقوف على العوامل التي ساعدته في تكوين فكره الرومانسي المثالي، وهي عوامل ذاتية خاصّة بالشاعر، وعوامل خارجية تتمثّل بالمحيط الخارجي مثل؛ البيئة، والمجتمع، والحياة العامّة، التي كان يعيش في ظلالها الشابي.

١. العوامل الذاتية الخاصّة بأبي القاسم الشّابّي: (ثقافته الشخصية، وموت والده، ومرضه).

أ. ثقافته الشّخصيّة: بدأ الشابي تعليمه في الكتاتيب، وفي سنّ الحادية عشرة طالع كتباً دينيّةً وصوفيّةً وفلسفيّة، ومن ثمّ التحق بالكليّة الزيتونية، ودرس العلوم الدينية واللغوية، ولمّا كان الشابي جاهلاً باللغة الأجنبيّة، اطّلع على الرّومانسية

الغربية أو الفكر المثالي الفرنسي في الأدب الغربي، عن طريق الترجمة، فتأثّر بفكر روسو، وأُعجب بغوته، وبلا مارتين، ولعلّ للأدب المهجري أثراً كبيراً في ترسيخ النظرية الرومانسية، فتأثّر بغاب جبران خليل جبران، في قصيدة المواكب. طالع عدداً هائلاً من أمّهات الكتب التّراثيّة، وطالع الدّواوين الشعرية القديمة، وكان للشعراء (المعري، وابن الفارض، وابن الرّومي)، تأثيرٌ كبيرٌ فيه. وعلاقته بأبولو، التي أصبح عضواً فيها بعد نشره قصيدة (صلوات في هيكل الحبّ)، في عام ١٩٢٩.

٢. العوامل الخارجية المحيطة بأبي القاسم الشابي:

وتتمثّل بارتباط الشابي بالبيئة التي يعيش فيها، وبمعاناة الشعب التونُسي من الاستعمار الفرنسي في مجالات حياته كافةً الفكرية، والسياسيّة، والاقتصادية، والاجتماعية.

إنّ هذه العوامل كانت كفيلةً لكي تغلّف روح أبي القاسم الشابي الإنسانية الشاعرة، وتتجه إلى العاطفة المرهفة، والإحساس الرومانسي الرقيق، فتبرز الملامح الرومانسية في مضامينه الشعرية فتتعدّد الموضوعات، وتبرز أحياناً من الناحية الشكلية فيكون التجديد من ناحيتي الإطار الموسيقي والصورة الفنية.

– بعض الملامح الرومانسية في شعر أبي القاسم الشابي:

إنّ رومانسيّة أبي القاسم الشابي حاضرةٌ بقوّة في شعره الوجداني الذي تنطلق فيه الذات إلى أقصى حدود الخيال الخلاّق، فلم تكن تلك الرومانسية ذات وجهٍ واحدٍ، بل تعددت الموضوعات الرومانسية في شعره بحسب تجربته الشعرية، فكانت في ديوانه أغانٍ يرتّلها في محراب الذات، لها وقع الحزن الجليل، والألم المرير، وفلسفة المثال، فنقرأ التشاؤم والكآبة، والظلام، في عنوانات قصائده: (في الظلام، الكآبة المجهولة، أغنية الأحزان، الدموع، في سكون الليل، نشيد الأسى، مأتم الحبّ، الأشواق التائهة..)، وهذه العنوانات عنواناتٌ رومانسية خالصة، يتصدّرها نَفَس الشابي الشعري الرقيق.

أوّلاً: الملامح الرومانسية من ناحية المضمون الشعري (الموضوعات الرومانسية):

تتمثّل الموضوعات الرومانسية في شعر الشابي بعناصر رومانسية يمكن تحديدها على الشكل الآتي: (الطبيعة، والحب، والتشاؤم والحزن، والموت).

١. الطبيعة:

تشكّل الطبيعة مجالاً كبيراً لرؤية الجمال، وكوناً متّسعاً للإحاطة بالكمال الإلهي، وأهلاً للتجلّي والمشاهدة بكامل أجزاء عالمها، فهي مصدر الحياة، ومنبع التجدد والخصب والعطاء، وحركة القيامة، وللشعراء في كلّ العصور قصائد تنحو إلى وصفها، ومشاهدة جمالها، ووصفها بما يتناسب مع حالة الوجد الصوفي لدى بعضهم، وكذلك أخذت الطبيعة أبعادها، إذ جسّدت الحركة الداخلية النفسية، والتي تتماوج فيها الانفعالات الذاتية، والوجدانية، فكانت الغابات رمز الطّهارة والمثال، ومحراب الجمال، وهي كذلك لدى الشاعر الشابي، فهي المناخ الرومانسي الحالم، والعالم الشعري

الدفين لدى الشابي، إذ نراها متجسّدة في ديوانه بأكمله، فهي رمزٌ للخصب والخلاص. لنرى في قصيدته (الغاب) [د.ص١٤٠] يجسّد ذلك الحلم الرومانسيّ الرقيق، إذ يقول:

في الغابِ سِحْرٌ رائعٌ متجدِّدٌ	باقٍ على الأَيَّامِ والأَعوامِ
في الغابِ دنيا للخيالِ وللرُّؤى	والشِّعرِ والتفكيرِ والأَحلامِ
للهِ يومَ مضيتُ أَوَّلَ مرَّةٍ	للغابِ أَرزحُ تَحْتَ عبءِ سَقامي
فإذا أَنا في نشوَةٍ شِعريَّةٍ	فيَّاضَةٍ بالوحيِ والإِلهامِ

فالغاب في القصيدة مصدرٌ للخيال، وينبوعٌ دائمٌ لنشوة الإبداع، وهو منبع الوحي والإلهام، والغاب عند الشابي يشبه غاب جبران خليل جبران، في قصيدته المواكب، فهو رمزٌ للطبيعة الرومانسية الحالمة، التي تحمل تمرّداً على الكلاسيكية الجامدة، وفيها انطلاق الذات نحو النور، والعالم بأسره، لتغييره، لنفض غبار العادات والتقاليد التي تقيّد حريّة الإنسان، فالغاب التي يقصدها جبران "ليست غاباً بمعناها الضيّق، بل هي الطبيعة بأسرها، وهي تمرّد على العادات والشرائع، وهي التمرّد على كلّ قيد".

وينطلق الشابي من غابه ليكون ممثلاً لانتصار الحياة، ومجسّداً للفكر الرومانسي، في قصيدته (إرادة الحياة) [د.ص٧٠]، التي هي "نشيد الحريّة والتفاؤل والثقة بانتصار الشعوب وتحرّرها، وكتبها الشاعر وهو مريض عام ١٩٣٢م، وكان يغنّي فيها للحريّة غناءً عفويّاً، واثقاً من تحرّر الشعوب من الاستعمار الغربي للوطن العربي ثقة المطمئن بحتميّة التّغيير"، فيقول فيها:

إذا الشَّعْبُ يوماً أرادَ الحياةَ	فلا بُدَّ أنْ يَسْتَجيبَ القدرْ
ولا بُـــدَّ للَّيْلِ أنْ ينجـــلي	ولا بُـــدَّ للقيـــدِ أن يَنْكَسِرْ

ثقة الشابي المطلقة تولّدت من تواشج عناصر الطبيعة مع الذات الشاعرة، فنرى في القصيدة أصواتاً ثلاثة، صوت الريح، وصوت الأرض وصوت الغاب، وهي تؤكّد انتصار الحياة وتغلّبها على الموت، حين يموت كلّ شيء ويفنى، فيقول:

وقال ليَ الغابُ في رقَّةٍ	محبَّبَةٍ مثل خفْقِ الوترْ
ويفنى الجميعُ كحلْمٍ بديعٍ	تألَّقَ في مهجةٍ واندَثَرْ
وتبقَى البُذورُ التي حُمِّلَتْ	ذخيرَةَ عُمْرٍ جميلٍ غَبَرْ
وذكرى فصولٍ ورؤيا حَياةٍ	وأَشباحَ دنيا تلاشتْ زُمَرْ

ويختتم قصيدته بطموحٍ تجري فيه دماء الحياة، لتُعلِنَ قيامتها وحتميّة الانتصار، فيقول:

وأُعْلِنَ في الكونِ أنَّ الطّموحَ	لهيبُ الحَيَاةِ ورُوحُ الظَّفَرْ
إذا طَمَحَتْ للحَياةِ النُّفوسُ	فلا بُدَّ أنْ يستجيبَ القَدَرْ

تجسّد هذه الأبيات الرؤيا الرومانسية الحالمة بالتغيير، والتي تؤكّدها الإرادة فقط من دون الأفعال، وهي إرادةٌ ينسجها الشاعر كحلمٍ رقيق مثالي.

٢. الحبّ:

الحبّ عاطفةٌ ساميةٌ، وهو طريق النّور والظّلمة، طريق الآلام والخلاص، فالحبّ في معناه النزوع المطلق نحو الخير والسعادة، يولّد في النّفس راحةً، واطمئناناً، ويُعطي الروح سموّاً، وحينئذٍ يُعدّ رابطاً يصعب الفكاك منه، ولذلك شكّلت الأنثى طرف ثنائيةٍ متّحدة للانتصار على الموت في الحياة، والعدم في الوجود.

أمّا الحبّ في الشعر، من "أهمّ موضوعات الشعر الرومانسي فهو يحتلّ المكانة الأولى، وهو شبيهٌ بعض الشبه بالحبّ العذري في شعرنا القديم، فهو روحانيٌّ، ونبيلٌ، ومقدّسٌ، وصادقٌ، ونقيّ"( )، وهو خالدٌ في الرومانسية "خلود الرّوح، فإذا فصل الموت جسديّاً بين المتحابّين، فإنّ قوته عاجزةٌ عن الفصل بين روحيهما، ويظلّ الحبّ قائماً لما فيه من عوامل خالدة، كالوفاء والصّدق، ولذلك يحلّ في عناصر الطبيعة ليذكّر العاشق بالعهد الذي لا يموت، وبالرباط المقدّس الخالد"( ).

وقد أدرك الشاعر أبو القاسم الشابي، الحقيقة الرومانسية للحب، وهو مثل نظرائه من الشعراء الرومانسيين يرسم صورةً معنويةً للحبّ تجسد الطهارة والعفة والقدسية، وتكون المرأة لديه رمزاً للطّهر والخلاص، فهي المثال الرائع لكلّ معاني الحياة، يغلّف صورتها بالخيال والأحلام، وتعدّ قصيدته (صلوات في هيكل الحب) [د.ص٦٠]، نموذجاً رومانسيّاً تتمثّل فيه عاطفة الحبّ، فيقول:

عذبة أنت كالطفولة كالأح	لام كاللحن كالصباح الجديد
كالسَّماء الضَّحُوكِ كاللَّيْلَةِ القمراءِ	كالوردِ كابتسامِ الوليدِ
يا لها من طهارةٍ تبعثُ التَّقديـ	ـسَ في مهجَةِ الشَّقيِّ العنيدِ
أَيُّ شيءٍ تُراكِ هلْ أَنْتِ فينيسُ	تَهادتْ بَيْنَ الوَرَى مِنْ جديدِ
أَنتِ مَا أَنتِ أَنْتِ رسمٌ جميلٌ	عبقريٌّ من فنِّ هذا الوُجُودِ
فيكِ مَا فيهِ من غموضٍ وعُمْقٍ	وجَمَالٍ مقدَّسٍ معبودِ

يسبغ الشابي هالةً من التقديس على المرأة، فيغلّف الحبّ برومانسية قلبه المتألم، لتكون المرأة قصيدةً، وأسطورةً، وصورةً للجمال المنشود، فتلتقي الأسطورة في عالم الخيال الشعري، ويفوح عبق فينوس آلهة الحبّ عند الرومان، فيصل بحبه درجة التقديس، والسحر والخيال.

وكذلك نرى الحبّ يتعانق مع الألم، وهو لا يناقض نفسه، لأنّ الحبّ عاطفة الآلام، فيقول في قصيدته (أيّها الحبّ) [د.ص١٣]:

أَيُّها الحُبُّ أنتَ سِرُّ بَلائِي	**وهُمُومي وَرَوْعَتي وعَنَائي**
ونُحُولي وأَدْمُعي وعَذَابي	**وسُقَامي وَلَوْعَتي وشَقَائي**
أَيُّها الحُبُّ أَنتَ سِرُّ وُجُودي	**وحَيَاتي وعِزَّتي وإبَائي**

إذا الشاعر يؤكّد أنّ حبّه مثاليٌّ خالص، وليس معرضاً للوصف، واستعراض الجمال، بل هو القوة في الروح، وسرّ الوجود، وسرّ البلاء في جمع النقيض.

مدرسة المقرر: الدكتورة إيمان عبد القادر